

الإنتاج الاجتماعي للظلم

التشكّل التاريخي للتحيزات الجندرية وشرعنة تهجير المرأة

محمد البشير رازقي

مقدمة

مستوى المنهج، من المتعدّد دراسة الجندر وعلاقته بشرعنة التهجير بمعزل عن العرق والطبقة، وهذه العلاقة المنهجية تساعدنا كثيراً على فهم حقيقة الأمور وتمثلها تمثلاً جيّداً. فهذه الثلاثية ليست معطى طبيعياً، بل هي صنعة اجتماعية وتاريخية خاضعة للاستقطاب والهيمنة، وآلية أساسية من آليات توزيع القوة والنفوذ في المجتمع. هذه العلاقة ظهرت جلياً، مثلاً، بفضل دراسة لوضع المرأة «السوداء» في جنوب أميركا إبّان حرب الاسترداد الأمريكية (١٨٦٥-١٨٦١) قامت بها سيلين باسيير (Céline Bassière) مبيّنة اختلاط الجندر (المرأة) والعرق (السوداء) والطبقة (العبودية) بالمصالح الاقتصادية والسياسية للرجل الأبيض واستراتيجيات التهجير الذي تعرّضت له المرأة كيد عاملة، وذلك من دون أن ننسى محاولة نسيان هذه الفئة وتغييبها في ما بعد إعلامياً، وخصوصاً أكاديمياً.

شرعنة التهجير وتشكّل التحيزات الجندرية

تشير الباحثة كيمبرلي ويليامز كرينشاو (Kimberlé Williams Crenshaw) إلى أنّ المرأة ذات البشرة الملونة توضع في حيز منفصل عن المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. والحيز العام، الذي يشكّل مكاناً مثالياً لتمظهر السيطرة الاجتماعية، يُظهر آليات مختلفة تسعى إلى منع المرأة من الخوض في هذا الحيز، وبخاصة على مستوى تلقّيها التعليم. ففي عدد كبير من البلدان الإسلامية، ظلّت المرأة محرومة من التعليم العصريّ حتّى زمن متأخر. طبعاً، يجب أن نضع هذه المسألة في إطارها التاريخي، أي رغبة الرجل في السيطرة على المؤسسة العلمية، لأنها من أهمّ الآليات التي استُخدمت لشرعنة سيطرته على المرأة. لذا، تمّ توظيف علمي البيولوجيا والتشريح لمحاولة إبراز الفوارق بين المرأة والرجل. والأكيد أنّ محاولة احتكار الرجل للمؤسسة العلمية ضاربة في القدم. ففي العصور الوسطى، مثلاً، انّهت كل امرأة تتقن الطب، وتمتلك معرفة عميقة بالأعشاب وفوائدها، بالسحر، وذلك لإبعادها عن هذا المجال الحساس. وقد تعرّضت النساء اللواتي يتقن الطب إبّان هذه الفترة للتكنيل والحرق والتعذيب على يد الرجل، حتّى

هل يمكننا أن نساهم في كتابة تاريخ للتهجير المُسلط على المرأة عبر تتبع التشكّلات الثقافية لشرعنة هذا التهجير على مستوى التمثلات قبل الممارسات والتطبيق؟

لقد بينت جوديث بتلر (Judith Butler) أنّ الظاهرة الجندرية هي ظاهرة تُصنع وتشكّل وفق مفاهيم ثقافية خاضعة للتراكم التاريخي. وأوضحت أن لا أحد يحمل جندرته آلياً، بل نجد مجموعة من المؤسسات كالعائلة والمجتمع تقوم بدور المعمل الاجتماعي الكبير لصناعة المعايير الاجتماعية الضابطة لتصرفات الأشخاص والمشكّلة لها.

بالاستناد إلى أطروحة جوديث بتلر، سوف نحاول فهم العلاقة بين السيرورة التاريخية والاجتماعية لصوغ مفهوم «المرأة» وقولبته وعلاقة كل ذلك بشرعنة حالات التهجير الذي تتعرّض له. وبتوظيفنا لمفهوم التقاطعية (intersectionality)، سوف نقوم بدراسة كيفية توظيف مجموعة من الحقول العلمية والحياتية والمؤسسية لتكريس هذه القراءة الجندرية ومأسستها.

ملاحظات منهجية

إنّ مفهوم التهجير ليس مفهوماً جغرافياً بحتاً، بل هو منصهر مع مفاهيم أخرى عدّة كالهوية والأنا والآخر والاختلاف والثقافة والحضارة، وخاضع لظرفيات وسياقات تاريخية متشابكة، بحيث نجد أنّ هناك «حدوداً بلا جدران، وحدوداً بلا حدود، وحدوداً بلا جدران» (Yves Charles Zarka). من ناحية أخرى، يمكن أن ننظر إلى التهجير بوصفه ممارسة عرقية وطبقية (جدار الفصل العنصريّ في فلسطين المحتلة، الجدار الفاصل بين أميركا والمكسيك، إلخ).

نطرح، في هذا البحث، فكرةً أساسيةً هي أنّه لا يمكننا أن نفهم ممارسات التهجير بمعزل عن رهانات التحيزات الجندرية. فعلى

الإنتاج الاجتماعي للظلم (التشكّل التاريخي للتحيّزات الجندريّة وشرعنة تهجير المرأة)

محمد البشير رازقي

اعتقلتها الشرطة، طلبت منها مجدداً نزع ثيابها كاملة، و«فتشت» بدقة على نحو مهين كل أعضاء جسدها بحثاً عن المخدرات. من جهة أخرى، تشير الباحثة كرينشاو في مقالها إلى «حاجز اللغة» الذي تعاني منه النساء المهاجرات، وبخاصة اللاتينيات، ودوره في تعرّضهن للبطالة والاستغلال. من هنا، تصبح اللغة حُدّاً جغرافياً افتراضياً يمنع المرأة المهاجرة من الاندماج المجتمعي. كما تلفت إلى العوائق التي توضع أمام المرأة في ميدان العمل، ولا سيّما معاناتها من البطالة، مبيّنة تقاطعية التصنيفات العرقية (المرأة السوداء) والطبقية (المرأة الفقيرة) والجندرية (المرأة) في عملية إقصاء المرأة من حيّز العمل، وذلك عبر عمل ميدانيّ قامت به في مدينة لوس أنجلوس.

ومن تظاهرات الحدود التي وُضعت للمرأة تحجيم دورها وتقزيمه خصوصاً إبّان الأحداث التاريخية الكبرى. فالرجل عادةً ما يحتكر العملية النضالية كاملةً. مثلاً، النساء الفرنسيات المقاومات للاحتلال النازي إبّان الحرب العالمية الثانية بقين كبرى ضحايا النسيان في السردية التاريخية الفرنسية. والدور الريادي للمرأة في هذه الحرب تعرّض للإخفاء والتورية سواء على يد الطرف السياسي أو على يد رجال السلاح (الجنود) الذين أرادوا احتكار كلّ المجد الذي تلا التحرير. هذا الحجب لدور المرأة في حروب التحرير، وفي الحروب بعامة، يتواطأ فيها الأكاديمي والسياسي والمجتمعي (بخاصة الجنود). فتواجه المرأة التجاهل بعد الحروب والتوترات فيما ينال الرجل المجد وحده، وذلك على الرغم من التضحيات التي تقدّمها المرأة في الحروب سواء من ناحية الدعاية أو الجوسسة أو المشاركة في الأعمال العسكرية أو في المفاوضات من أجل إحلال السلام. على الرغم من ذلك، تعتمد «الهيمنة الذكورية» إلى إقصاء هذه الحقائق، فيغيّب دور المرأة «العسكري» في الأعمال الفنيّة (سينما، مسرح، إلخ) وفي الكتب المدرسية.

أحد جوانب الحيّز العام الذي يشهد تقزيم المرأة هو المجال الرياضي. فمنذ القرن التاسع عشر، ارتبط بروز الأنشطة الرياضية والبدنية بالاختلاف واللامساواة الاجتماعية. وقد تمّ تصنيف المرأة في هذا الإطار تصنيفاً صارماً، وذلك خصوصاً بالاستناد إلى الطب الرياضي الذي كرّس النظرة إلى جسد المرأة بوصفه ضعيفاً بالمقارنة مع جسد الرجل. فباعتبار الجسد «نصاً ثقافياً ومكاناً ملموساً للسيطرة الثقافية» «Catherine Louveau»، حُشرت المرأة في هذا النص. هذه النظرة لجسد المرأة بدأت عملية شرعنتها علمياً

إنّ بعضهم كان يقوم بعملية «صيد الساحرات» جاعلاً إياهنّ في مقام الحيوانات (راجع الصور أدناه).

راحت سيطرة الرجل على ميداني الطب والبيولوجيا تتكرّس بدءاً بالقرن الثامن عشر. وكما بين ميشال فوكو (Michel Foucault) في كتابه «تاريخ الجنسانية»، فإنّ «جنسنة» الإنسان بدأت في هذا القرن مع تطوّر علمي البيولوجيا والطب، إذ قبل هذا التاريخ كان يُنظر إلى الرجل والمرأة من زاوية دينية وثقافية، ولكنّ هذين العلمين أعطيا شرعيةً لطغيان النظرة الجسدية. من هنا، تأسس سجن المرأة بالارتكاز على خواصها الجسدية ووظائفها الإنجابية، وأقصيت تماماً عن الحيّز العام، ولا سيّما السياسي.

كذلك نجد حدوداً اجتماعيةً وجغرافيةً توضع للمرأة، وبخاصة لفئة من النساء «البغايا»، إذ يتمّ عزلهنّ وإبعادهنّ عن الأنظار قدر الإمكان، ويُنظر إليهنّ ككائنات هجينة تعيش ضمن حيّز جغرافيّ يتموضع بين «النظام والفوضى» و«الامتثال والانحراف» و«الممنوع والمسموح به». فيخصّص لهنّ مكان هجين، عادةً ما يكون في الأحياء العتيقة المظلمة، محاط بحدود ملموسة وحدود ذات معايير اجتماعية وأخلاقية، حتّى إنّ «البغية» في هذا الإطار يتمّ وصفها من طريق وشم لكي يسهل تمييزها عن بقية عناصر المجتمع، وهذه الممارسة طبقت في المغرب الأقصى في الحقبة الاستعمارية. ويمارس ضدّ النساء هنا قمع جغرافيّ، إذ يحشرون في المكان المهمّش والمظلم للذاكرة الجغرافية للمدينة.

يضطلع المفهوم الجغرافي للحدود بدور مهمّ في صناعة الحواجز أمام المرأة. فالمرأة المهاجرة، مثلاً، تعيش ظروفًا صعبةً ومُذلّةً و«عبودية» معاصرة. هذا ينطبق خصوصاً على المهاجرات «بلا وثائق»، فمن المطار تبدأ تظاهرات الإهانة. هذا ما تصفه الباحثة ماغdalena روزاند (Rosende Magdalena) في بحث استقصائيّ على جانب كبير من الأهمية عن سيرة معبّرة لامرأة كولومبية هاجرت إلى سويسرا. وهي تروي كيف تمّت تعريتها عند التفتيش في غرفة منعزلة في المطار وكيف أُفرغت كلّ حقائبها. ولمّا أرادت البحث عن العمل، تعرّضت لكلّ أشكال العراقل من صعوبة السكن إلى الأعمال المنهكة والمُذلّة أحياناً، حتّى إنّ صاحب العمل دعاها إلى ممارسة الجنس معه لكي يمنحها امتيازاتٍ أخرى في عملها، وصار يبتزها لكونها لا تمتلك وثائق إقامة، وبلغ حدّ اغتصابها. لكنّه لم يكتفِ بذلك، بل رفع شكوى ضدها لكونها تعيش في سويسرا من دون تصريح إقامة. ولمّا

الإنتاج الاجتماعي للظلم (التشكّل التاريخي للتحيزات الجندرية وشرعنة تهجير المرأة)

محمد البشير رازقي

باللباس، فتمّ إبعادها عن كلّ لباس يشبه لباس الرجل. بالمقابل، بات لزاماً على الرجل ألاّ يلبس لباس المرأة. على وجه العموم، أنتج «تشييء» جسد المرأة عملية اختزال رهيبه لدورها على مستوى الحيز العامّ. فالمفهوم الذكوريّ لجسدها ساهم في تنميته وجعله مجرد شيء يخدم متعة الرجل الجنسية، حتّى إنّه يمكن أن يصبح جسداً خاضعاً لمنطق البيع والشراء، أي منطق السوق، شأنه شأن السيارة وسائر السلع الاستهلاكية. زاوية النظر الذكورية هذه رسّخت الجانب الوظيفيّ الأداتيّ لجسد المرأة في معزل عن الجانب الحقوقيّ. هذه العلاقة «الشيئية» بين المجتمع الذكوريّ والمرأة لخصتها بطريقة بليغة الباحثة كاترين ماكينون (Catherine Mackinnon) بعبارة «رجل يقبّل امرأة / فاعل فعل شيئاً». أما فاريناز فاسا (Farinaz Fassa)، فأكدت أنّ هذه الطريقة مهمّة في ترسيخ النظرة الذكورية إلى المرأة، التي تضع الرجل في موقع «الفاعل» (sujet) والمرأة في موقع «الشيء» (objet). أن تكون «شيئاً» يعني في نهاية المطاف فقدان هويتك كفاعل اجتماعي والاقتصار على موقع التابع.

خاتمة

برزت في هذه المقالة فكرة أساسية هي بمثابة اللبّ: عمليّات التهجير ضدّ المرأة هي فكرة قبل أن تكون ممارسة، وتشكّل تاريخي للذهنيّات والمسلّمات المتحيّزة ضدّ المرأة، ومأسسة للظلم والتهجير وشرعنة لهما قبل لحظة التهجير ذاتها. فتاريخياً وحاضراً، تعرّضت المرأة للتهجير إبّان الحروب والأزمات والظروف الاجتماعية الصعبة، ولكنّ عوامل اجتماعية وثقافية، مثل الذهنية الذكورية وتوظيف علوم متعدّدة كالبيولوجيا والأطعام الاقتصادية، مهّدت لهذا الظلم وشكّلت تحيزات لصالح الرجل. في هذا الصدد، حاولت دينيس كانديوتي (Deniz Kandiyoti) أن تقدّم طرحاً عن آليات تشكّل الهوية الذكورية. واستخدام مصطلح «تشكّل» (construction) له دلالاته، إذ يحيل إلى الفعل التاريخي لبناء الشيء والرغبة في هذا البناء والرهان عليه، لا إلى النشأة بطريقة طبيعية.

ولقد تبيّنت لنا الأهمية التحليلية الفائقة التي تتضمنها أطروحات جوديث بتلر عن سيرورة التشكّل التاريخي والاجتماعي لمفهوم «امرأة»، وبخاصّة مع ضرورة تجنّب تحليل مثل هذه الظواهر الاجتماعية معزول عن الثالوث «جندر/طبقة/عرق»، وذلك عبر توظيف المنهجية التقاطعية. فهذا الثالوث هو المعادلة الأثيرة

إبّان عصر النهضة الأوروبيّ مع بروز علم الأمراض التشريحيّ (anatomy-pathologie). ومع نشأة علم الأنثروبولوجيا ورغبة الرجل الأوروبيّ في معرفة الآخر الغريب، تمّ توظيف علم التشريح المقارن (anatomie comparée) لتكريس النظرة إلى جسد المرأة. هنا تشابكت الأنثروبولوجيا مع الطبّ والبيولوجيا والايديولوجيا في سبيل مأسسة هذه النظرة التقسيمية وشرعنتها. ولا نغفل، هنا، أنّ كلّ عرقٍ مختلف عن العرق الأبيض، وخصوصاً الأسود، كان، مثل المرأة، ضحية هذه النظرة. فضلاً عن ذلك، جرى توظيف الموروث الدارويني، ولا سيّما نظرية البقاء للأصلح أو الصراع من أجل البقاء، لشرعنة ضعف المرأة والسيطرة عليها. يُظهر لنا هذا المسار العلمي اندماج الطبقة والعرق والجندر، إذ إنّ «السلطة تتحقّق وراء البيولوجيا والعلم» (Aude Fauvel). في هذا الإطار، جرى توظيف بعض العوامل طبيّاً، مثل الحيض والحمل والولادة وانقطاع الطمث، لتكريس مفهوم «الجنس الضعيف». ونلاحظ أنّ الرياضة ساهمت في صناعة الاختلاف، ثمّ كرّسته من طريق المؤسسات العلمية. هكذا تتأكّد مقولة سيمون دي بوفوار (Simone de Beauvoir)، ولكن هذه المرة على لسان غيرترود بفيستر (Gertrud Pfister)، إنّ «الجندر ليس هو ما نحن عليه (طبيعيّاً)، بل ما نصنعه».

ولكون مجال العمل من أهمّ ركائز الحيز العامّ، تمّت عملية عزل المرأة عنه أو تحجيم دورها فيه، وذلك سواء من ناحية إنقاص أجرها، فالمرأة تعطي أجراً منخفضاً خصوصاً في الدول التي تعاني من صعوبات اقتصادية، أو لجهة منحها ساعات عمل أقلّ أو غير مناسبة زمنياً، ولا سيّما عبر حشرها في منظومة الدوام الجزئيّ، ما يساهم في تفجيرها اقتصادياً وتهميشها على مستوى المنظومة الشغلية والمؤسساتية. هذا ما عبّرت عنه الكاتبة تانيا أنجلوف (Tania Angeloff) بلفظ «فتات العمل». ويُعدّ الدوام الجزئيّ الذي سُجنت فيه المرأة أهمّ الأسباب التي تعرّضها لخطر الفقر في بلجيكا. من ناحية أخرى، حرّمت المرأة من عدد من المناصب المهمة لأسباب فيزيولوجية. كلّ هذه المواضيع وغيرها تناولتها بدقّة مجلة «العمل، الجندر والمجتمعات» (Travail, genre et sociétés) سواء في نسختها الفرنسية أو الإنجليزية.

ومن أشكال الحدود التي وُضعت للمرأة هو نوع اللباس الذي فُرض عليها. هنا يصبح اللباس لغةً أساسيةً والحامل الأوّل للمعاني والدالّ على التقسيمات الجندرية والطبقية وطبيعة العلاقات الاجتماعية. وقد نُصبت أمام المرأة مجموعة من الحواجز والتابوهات المختصّة

المراجع:

- Abu-Lughod, Janet, «The Islamic city: Historical Myth, Islamic Essence, and Contemporary Relevance», IJMES, vol.19,(Mai 1987), pp. 155- 176
- Angeloff, Tania, « Des miettes d'emploi : temps partiel et pauvreté », Travail, genre et sociétés, 19991/ (N° 1), pp. 4370-
- Bessière, Céline, « Race/classe/genre. Parcours dans l'historiographie américaine des femmes du Sud autour de la guerre de Sécession », in, Clio: Femme. Genre. Histoire, N17, 2003, p. 231258-
- Butler, Judith «Your Behavior Creates Your Gender» , in, www.youtube.com/watch?v=Bo7o2LYATDc
- Crenshaw, Kimberlé Williams, Bonis Oristelle, « Cartographies des marges : intersectionnalité, politique de bidentité et violences contre les femmes de couleur » (Mapping the Margins: Intersectionality, Identity Politics and Violence Against Women of Color), Cahiers du Genre, 22005/ (n° 39), pp. 5182-
- Farinaz Fassa et al., « Histoires d'objets », Nouvelles Questions Féministes, 20051/ (Vol. 24), p. 412-. In, <http://www.cairn.info/revue-nouvelles-questions-feministes-20051--page-4.htm>
- Fauvel, Aude, « Laure Murat, La Loi du genre. Une Histoire culturelle du « troisième sexe » », Clio. Femmes, Genre, Histoire, 20131-, n :37, pp254- 257
- Fenneke, Reysoo, « La construction sociale de la masculinité à Mexico », Nouvelles Questions Féministes 20023/ (Vol. 21), pp. 6170-

في الدراسات النسوية. في هذا الصدد، أبرزت ماري-لوري ريان (Marie-Laure Ryan) أن «الاضطهاد ليس شيئاً واحداً، بل أشياء متعددة: الاستبعاد، التهميش، العجز، الإمبريالية الثقافية، العنف، ولذلك نحن بحاجة أيضاً إلى التمييز بين استراتيجيات التحرر من مختلف أنواع الاضطهاد».

كما تبين أن فكرة التهجير تُصنع اجتماعياً وعلى مستوى التمثيلات قبل أن تصبح واقعاً اجتماعياً مُمارساً، وأن إنتاج الفعل المتحيز ضد المرأة مرّ بتشكيل تمثيلات موزعة بين السرديات/الخطابات والممارسة عند تطبيق التهجير. فلا يمكن فهم الظلم الاجتماعي تجاه المرأة المهجرة سواء بسبب الحروب (الحرب اليمنية، السورية، الليبية، إلخ) أو بسبب الأزمات الاقتصادية (أوروبا الشرقية، أميركا اللاتينية، إلخ) من دون فهم سرورة تشكل شرعنة التهجير ومأسسته على مستوى التمثيلات والثقافة عبر التشكيل التاريخي والتراكمي للهوية «الذكورية»، مثل تعدد الزوجات والطلاق والرقابة الأبوية وعلاقة كل ذلك بالظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية (لحظة الاستعمار، مثلاً، أو سوء فهم أسس مؤسسة الدولة الحديثة في دول ما بعد الاستعمار) ومفهوم الطبقة (class) والأصل العرقي (ethnicity) والجندر. والأكد أن تشكل شرعنة تهجير المرأة يمر عبر مأسسة الذكورة من طريق مجموعة من الآليات أهمها الأبوية (patriarchy). ويسعى النظام الأبوي إلى تأسيس هذه الصناعة المجتمعية ومسرحتها بواسطة مراكز أهمها توافر الغيرة الجنسية (sexual jealousy) والرغبة وأيقنة «سن البلوغ» (puberty). أما الاستراتيجيات المتبعة لتكريس القوة اللاملموسة، أو المعنوية، التي تساهم في تشكيل الذكورية، فتمر عبر الوصم (stigmatization) والتهميش. والأهم، هنا، أن عملية التهجير الفعلية للمرأة تصبح مجرد حلقة متصلة بالتشكل الذهني والتربوي لشرعنة التهجير. فتتعرض المرأة لممارسات قاسية في المجتمعات المستقبلية كالاستغلال الجنسي والعمل المنزلي والأجر المنخفض. ولذا، فإن ثلاثية «طبقة/عرق/جندر» تساعدنا على فهم رهانات التهجير كممارسة طبقية وعرقية متحيزة جندرياً.

Histoire, femmes et sociétés, 2006, n :23, pp119- 143

- Offen, Karen, « Le gender est-il une invention américaine ? », Clio. Histoire, femmes et sociétés, 2006, n :24, pp291- 304
- Rebreyend, Anne-Claire « Comment écrire l'histoire des sexualités au xxe siècle ?, Bilan historiographique comparé français/anglo-américain », Clio. Femmes, genre, histoire, 2005, n :22, pp.185- 209
- Rosende, Magdalena « De la servitude contemporaine : témoignage d'une femme sans-papiers », Nouvelles Questions Féministes, 20043/ (Vol. 23), p. 96111-. In, <http://www.cairn.info/revue-nouvelles-questions-feministes-20043--page-96.htm>
- Ryan, Marie-Laure « A la recherche du thème narratif », Communications, 1988, n: 47, pp. 2339-
- Zarka, Yves Charles, « Éditorial. Frontières sans murs et murs sans frontières », Cités, 20073/ (n° 31), p. 36-

• Gertrud, Pfister « Activités physiques, santé et construction des différences de genre en Allemagne », Clio: Femme. Genre. Histoire, N23, 2006, p. 4573-

• Kandiyoti, Deniz «The paradoxes of masculinity: Some thoughts on segregated societies», in: Dislocating Masculinity. Comparative Ethnographies, Edited By: Andrea Cornwall, Nancy Lindisfarne, Routledge, London, 2nd Edition, 2016, pp.197- 213

• Lavanchy, Anne « Christine Verschuur (Éd.) : Quel genre d'homme ? Construction sociale de la masculinité, relations de genre et développement », Nouvelles Questions Féministes, 20023/ (Vol. 21), pp. 118121-.

• Louveau, Catherine « Sexuation du travail sportif et construction sociale de la féminité », Cahiers du Genre, 12004/ (n° 36), p. 163183-

• Louveau, Catherine, « Inégalité sur la ligne de départ : femmes, origines sociales et conquête du sport », Clio.